١

المصطفى

- اليتيم الهاشمى
- بين ليل ونهار
- ليلة القدر

اليتيم الهاشمى

ولدته أمه فى مكة يتيماً . مات أبوه « عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم » فى طريق عودته من رحلة إلى الشام . وعروسه « آمنة بنت وهب » فى الأشهر الأولى من حملها .

ومضى التاريخ لم يطل الوقوف بمكة مهد مولده ، وقد شغلته عن هذا الوليد الهاشمى اليتيم . أحداث جسام كانت تجرى على مسرح الدنيا فى الثلث الأخير من القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام .

وراح يرصد نذر الانهيار فى عالم يريد أن ينقض ، ويتابع الجولات الأخيرة للصراع بين قطبى ذلك العالم القديم ، حيث كانت دولتا الفرس والروم تخوضان حرباً طاحنة على مراكز السلطة والنفوذ . .

وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها ، فما عاد يعنيها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبداً لتلك النار تصلاها شعوب المنطقة بالعسف والإكراه . .

والأخرى قد أثخنتها جراح الحرب وهدّتها أمراض الشيخوخة ، واستنزفت بقايا قوتها محنةُ الصراع الطائفى بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته . فتهاوى النسر الرومانى على الأرض يجثم على أنفاس خلق الله ، ويتسلط على مستعمراته بالإرهاب والطغيان ، فى محاولة يائسة تستبقى له من الهيبة ما يستر وهنه . ويعوضه عن قواه المستنزفة .

حتى بلغ ذلك اليتيم الهاشمى المكى الأربعين من عمره ، وتلقى رسالة الله فى شهر رمضان بعد مولد السيد المسيح بستة قرون وبضع سنين ، فالتفت التاريخ إلى مكة ، وتوقف برهة ليجمع كل ما وعت ذاكرة الزمن عن ذلك المصطفى وآبائه وعشيرته ، وبيته وبلده . .

وعاد يصحبه من مهد مولده فى دار أبيه عبد الله بجوار البيت العتيق ، إلى بادية بنى سعد حيث كانت رضاعته . ثم يلتمس آثار خطاه إذ تمضى به أمه . وهو غلام فى السادسة من عمره . إلى يثرب لتزيره قبر والده الثاوى هناك .

ثم يفاجئها الموت فى طريق الإياب فتدفن فى ثرى « الأبواء » .

ويستأنف الصبى سيره حتى يصل إلى مكة ، حزيناً مضاعف اليتم .

ويظل التاريخ معه يلتقط كل ما تركت خطاه على درب الحياة من آثار ، ويصغى إلى الأصداء الباقية من حركاته وكلماته ، ويستوعب ما كان من مواقفه ، لكى يكتب بها الصفحات الأولى من سيرة ذلك المصطفى الذى بدأ من فجر المبعث ، يوجه سير التاريخ ويملى عليه فيكتب

* * *

بين ليل ونهار

غشى الكونَ ليل ثقيل ، ولفَّ أم القرى صمتٌ مكدود فلم يعد يُسمع فيها إلا أنفاس الليل مختلطة بهمهمة صلواتٍ وثنية ، كانت لا تزال تتسلل من البيت العتيق .

وقمر رمضان قد توارى واحتجب ، فليس على الأفق المعتم سوى ضوء شاحب تكاد تحجبه عن مكة ، جبالها الصخرية التى تبدو كأنها كتل ضخمة ماردة من ظلمات متراكمة . .

ونامت الدنيا ، لا تلقى بالاً إلى رجل من بنى هاشم ، ابن امرأة من قريش تأكل القديد ، قد أوى إلى غار هناك مستغرقاً فى تأمله ، يلتمس فى العتمة الداجية شعاعاً من نور الحق ، وينشد فى خلوته أنس الهدى وراحة اليقين ، وخواطره تحوم حول البيت الحرام الذى رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فلم يلبث أن صار مع الزمن مثوى لأوثان ممسوخة شتى ، لكل قبيلة وثنها الذى تحج إليه وتطيف به وتقدم له القرابين . . .

وغير بعيد من غار حراء ، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الدينى الغابر وقد طوته وثنية عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلق الوعى ، ثم لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الباهظة ، لا تحسب حساباً لهذا المختلى فى غار حراء ، وقد ألفت أن تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع ، عازفاً عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه ، لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

وماذا على القوم أن عزف « محمد بن عبد الله » عن أوثانهم ورفض

أن يعبدها ؟ كذلك فعل نفر غيره من الحنفاء . ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان . فى زحام أفواج الحجاج الذين يتثالون إلى مكة من كل فج عميق ، ليطيفوا بأوثانهم فى الكعبة ويؤدوا طقوس عبادتها . جيلا بعد جيل . . .

*

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان ، وينشر نوره على القمم والسفوح والبطاح والقيعان ، فيضيء الظلمة الداجية . .

ومع نور الفجر الوليد من الليلة الغراء ، تجلى الوحى على المصطفى فى الغار . وألقى إليه الكلمة : اقرأ . . .

وما كان محمد بقارئ ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقرأْ ورَبُّكَ الأَكرَمُ ، الذِى علَّم بالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَم »

وبدأ تاريخ جديد :

الرجل الذى سرى أول الليلة إلى غار حراء ، على مألوف عادته منذ أنكر موضع الأصنام فى البيت الحرام ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفه وضلال ،

خرج مع الفجر من الغار ، نبياً مبعوثاً بختام رسالات الله . .

والكلمات الأولى التى تلقاها فى تلك الليلة من وحى ربه ، كانت بداية كتاب معجز ، وآية نبى بشر ، ولواء عقيدة وجّهت التاريخ وحررت الإنسان . وصنعت أمة وقادت حضارة . .

خرج المصطفى من الغار . واتجهت به خُطاه نحو بيته ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق الأعلى نور الفجر الجديد ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسنى وضاء ، يكشف عما تكدس فى رحابه من أصنام وأوثان . فتبدو على حقيقتها العارية ممسوخة بلهاء .

وكان لها من ظلام الليل سِتر كثيف أصم ، يخدع البصر ويزيف الرؤية . . .

* * *

النور ملء قلبه وبصيرته ، والكلمات ملء فكره ومسمعه ، ولكنه فى حيرة من أمره ، يعييه أن يستوعب السر الأعظم الذى انبلج له ، ويأخذه من جلاله وروعته ما يشبه الدوار ، فيكاد لفرط دهشته وانبهاره ، لا يدرى ما إذا كان فى وعى يقظته ، أم أنها رؤى خايلته لطول ما تأمل فى آيات القدرة . ورنا إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه ؟

وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه ، فما بلغ بيته حتى بدا مجهداً مرتعداً شاحباً ، كأنه عائد من سفر طويل شاق . .

ولمحها هناك فى انتظاره : « خديجة » التى كانت له على طول خمس عشرة سنة ، زوجاً وصديقة وأمًّا ، وكانت له منذ تزوجها ملاذاً وسكناً . .

ودون تفكير أو تردد ، أفضى إليها بما رأى وما سمع ، وهو يحدق فى ملامحها إذ تصغى إليه بكل كيانها ، محاولا أن يستبين وقع هذا الأمر على أقرب أهله إليه ، وأعزهم عليه ، وأصفاهم له ودًّا وأرشدهم رأياً . .

وقالتها على الفور ، فى صوت مفعم بالحرارة واللهفة والثقة :

« الله يرعانا يا أبا القاسم . أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فوالذى نفسُ خديجة بيده : إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

فنفذ صوتها الحار إلى قلبه : وأحس راحة الأمن والطمأنينة ، وزوجه تقوده فى رفق وحنان إلى مضجعه فتدثره وتظل حانية عليه حتى ينام . .

* * *

« نبي هذه الأمة » ؟ !

ما الذى ألقى إلى بال خديجة وعلى لسانها ، بمثل تلك الكلمة الكبرى ، حين كانت الوثنية غاشية ، والعرب قبائل شتى والناس طوائف وأمم متناكرة ؟

أهى من تعبير التاريخ الإسلامى عن إدراك أم المؤمنين الأولى لأن لهذا الأمر ما بعده ، بمجرد أن سمعت زوجها المصطفى يحدثها عن أول الوحى ؟

أم أن الكلمة تعبير عن واقع لم يكن قد انجلى تماماً بعدُ فى تلك الليلة من رمضان ، أضافها الإخباريون المسلمون إلى حديث زوج المصطفى الأولى ، وظلوا يتناقلونها حتى وصلت إلى «ابن إسحاق» فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة ، فأثبتها ابن هشام فى (السيرة النبوية) ؟

لا أرى الكلمة غريبة على الموقف ، فما كانت السيدة خديجة ، وهى من صميم قريش وجيرة الحرم ، بحيث يفوتها شىء مما ماجت به بيئتها قبيل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه شعراء العرب وحكماؤهم ، وإرهاصات لكهانهم وحنفائهم عن نبى جديد حان مبعثه ، وتنبؤات برسالة سماوية جديدة تناقلها الرواة والسمار عن رهبان النصارى فى الشام ونجران ، وأحبار يهود فى شمال الحجاز .

ومكة على الخصوص كانت المركز الذى تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والتنبؤات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك ، لتصب حول البيت العتيق . وتحوم حول حى بعينه من أحياء قريش هو حى بنى هاشم ، وترنو إلى شخص بذاته هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

وقد كان لمكة من واقعها ورؤاها وذكرياتها ، ما تضيفه إلى تلك الإرهاصات الوافدة من شمال وجنوب وشرق :

بدأ المعروف من تاريخها الدينى بقصة فداء إسماعيل ، جد العرب العدنانية ومنها قريش ، حين رأى أبوه إبراهيم أنه يذبحه قرباناً لربه .

ونجا إسماعيل وعاش ليرفع ، هو وأبوه إبراهيم ، القواعد من البيت العتيق ، ويطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

ومن ذلك الماضى السحيق ، وهذا البيت مثابة الحج والعبادة ، يرى الناس بينه وبين السماء صلة مباشرة فهم يسعون إليه من كل فج عميق حجاجاً ضارعين ، ويلوذون به داعين مبتهلين :

« لبيك اللهم لبيك »

فتتجاوب بهتاف تلبيتهم أودية مكة وبطاحها ، وتخشع له الجبال الصخرية السود المحيطة بها ، وتعنو هامات البدو الصلاب أبناء الصحراء .

ومع الزمن تأصلت حرمة هذا البيت العتيق ورسخت تقاليد إعظامه وطقوس إجلاله ، ومنه أخذت قريش مكانة السيادة ، بجوارها الحرمَ المكى ، وما استأثرت به من وظائف الشرف الدينية ، وراثةً عن جدّها «قصى بن كلاب المضرى العدنانى» .

وفى تاريخ البيت الهاشمى قصة فداء مماثلة لقصة فداء إسماعيل التى بدأ بها المعروف من التاريخ الدينى لمكة :

شهدت مكة هذه القصة قبل مولد «محمد» بعام أو بعض عام : وكان الذبيح الهاشمي المفتدى فيها هذه المرة ، أباه «عبد الله بن عبدالمطلب ابن هاشم» .

ويوم فدائه ، انطلق به أبوه عبد المطلب ، فزوجه «آمنة بنت وهب» سيد بني زهرة . غير أن عبد الله ما لبث أن مات في طريق عودته من رحلة الموسم إلى الشام ، تاركاً لعروسه ذكراه الحية ، جنيناً في الشهر الثاني من الحمل .

ومضت إحدى وأربعون سنة ، ربما تكون قصة الفداء قد تاهت فيها ، في ضجيج الأحداث . حتى تلقى المصطفى الكلمات الأولى من وحي ربه . فعادت الذكرى تربط ما بين محمد بن عبد الله وإسماعيل ابن إبراهيم ، برباط نسجته يد الزمن على مدى قرون وأدهار . . .

وتربطها كذلك ، في وعي السيدة خديجة ، بما رأت من ميل زوجها ، قبل المبعث ، إلى الخلوة في غار حراء ، وما عرفت من رفضه للأصنام التي تكدست في حرم البيت العتيق ، وحيرته من أمر قومه كيف ضلت عنهم أحلامهم فنسوا أنهم الذين صنعوا الأصنام والأوثان بأيديهم ، وجعلوا منها مع الله آلهة وأرباباً ، يطيفون بها عابدين . . .

وفي هذا كله كانت خديجة تفكر وهي تخرج من البيت إثر سماعها بشرى الوحي ، ساعية إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» تلتمس الرأي لديه ، وترجو أن تجد من علمه بالكتب والأديان ما تطمئن به إلى حقيقة الفكرة الملهمة التي سيطرت على وعيها المرهف : أن يكون زوجها المصطفى نبيًّا لهذه الأمة . .

وقالها ورقة بن نوفل :

٢٠

« قدوس قدوس ، والذى نفسُ ورقة بيده ، لئن كنتِ صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ؛ وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت ! »

* * *